العولمة الثقافية وأثرها على الهوية الثقافية للشباب

بلالي عبد المالك
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2

الملخص:

تشتمل هذه الورقة على تحديد مفهوم الهوية الثقافية ومدى تأثرها بالعولمة وخاصة الثقافية منها، مبرزةً وسائلها من تكنولوجية سمعية، وسمعية بصرية، وشبكة عنكبوتية (أنترنت)، والسلع الاستهلاكية المروجة لثقافة العولمة، وصولا إلى الجوانب المتأثرة بهذه العولمة الثقافية سواء على المستوى العقائدي واللغوي، أو على المستوى التاريخي والقيمي، أوالاقتصادي والاجتماعي، أوالثقافي والإيديولوجي.

مقدمة:

انطلاقا من مقولة بيتر أل. بيرغر صاحب كتاب (عولمات كثيرة مع صموئيل هنتنغتون): "أن المستقبل يشهد حربا ثقافية بامتياز"[1]، وفي نفس الصدد يرى صموئيل هنتنغتون في كتابه (صدام الحضارات) أن "الصراعات المقبلة في العالم الجديد لن تقوم على أسس إيديولوجية أو اقتصادية، بل إن مصادر الصراع ستكون بالأساس ثقافية[2].

ومن خلال هذه الأطروحات لمفكرين كبار تعرفهم الساحة الدولية، وهم يعترفون بأن المستقبل القريب والبعيد يشهد نوعاآخر من الحروب وهي الحروب الثقافية، التي تسعي لغزو العقول وليس غزو الأراضي والشعوب، حيث تفطن العالم الغربي أخيرا بعد خسائر مادية وبشرية جمة تكبدها من خلال رعونته باستخدامه القوة العسكرية للسيطرة والاستحواذ، أن المجتمعات تتحرر من جديد طال الزمن أو قصر، ولهذا السبب لجأ إلى الحرب الناعمة التي تكلفه جزءا يسيرا من الموارد المادية التي سرعان ما يسترجعها من دون خسائر بشرية تذكر،وتكسبه في الوقت نفسه أوطانا ومجتمعات بجهد يسير؛ إنها الحرب الأخطر على الإطلاق،وجاءت تحت مسمى (العولمة الثقافية) التي تسعى إلى احتكار المعلومات ووسائل الاتصال العابرة للحدود الوطنية للشعوب وللحدود الشخصية للأفراد، وهي غزو ثقافي يمس ذاتية الأفراد والأمم ويحمل خطابا ثقافيا خاصا لشعوب العالم مفاده أن لا مجال للتعدد الثقافي وإنما البقاء للثقافة المعولمة المهيمنة على كل الثقافات، وتتجلى كذلك في وسائل هذه العولمة في جانبها الثقافي وما تريده من ثقافات الشعوب الأخرى،وتكمن خطورة العولمة الثقافية في مدى تأثيرها على الهويات الثقافية للمجتمعات.

فالهوية الثقافية بما تحمله من قيم اللغة والدين والعادات والتاريخ والموطن والتقاليد، تتعرض للتشويه والازدراء خاصة في الدول والشعوب المستضعفة، ومنها الوطن العربي والإسلامي،وسيظل العالم الإسلامي في خطر جراء هذا التكالب عليه من قبل الغرب والدول العظمى،فقد تتخلخل قيم الانتماء والوطنية،ويبرز التشكيك في الأصلوفي الوجود ذاته، وقد يفرّط الإنسان في دينه ولغته ظنّا منه أنهما سبب تخلفه وانحطاطه،كما تظهر النزاعات العرقية والمذهبية خاصة في غياب أفق مستقبلي واضح، ومن خلال ما تقدم تبادر لنا السؤال التالي:ما العولمة الثقافية ؟وما آثارها على الهوية الثقافية للأمم وخاصة شباب الأمة العربية والإسلامية ؟وستكون الإجابة عن ذلك في ثلاثة محاور هي:تحديد المفاهيم - التحليل السوسيولوجي للعولمة الثقافية - آثار العولمة على الأمة العربية والإسلامية.

المحور الأول: تحديد المفاهيم.

1- الهوية الثقافية:

تشكل الهوية الثقافية على المستويين الوطني والدولي واحدة من أهم الحاجات النفسية غير المادية، ويمكن أن تكون مصدرا من مصادر الصراع المتزايد داخل المجتمعات وبين مجتمع وآخر، فنحن نواجه صراعا جديا في مجال القيم، ويوجد نوع من التحمّل ولكن لا يوجد تقبل صاف أو ترحيب خالص بقيم الجنوب، ذلك لأنه لا يوجد جهد جاد لمحاولة فهمها.[3]

فهي تلك المبادئ الأصلية السامية والذاتية النابعة من الأفراد أو الشعوب، وتلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الشخصي الروحي والمادي بتفاعل صورتي هذا الكيان، لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب، بحيث يحس كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما يخصصه ويميزه عن باقي المجتمعات الأخرى. والهوية الثقافية تمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية لأعضاء الجماعة الواحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور الانتمائي إليها، وهي ذاتية الإنسان ونقاؤه وجمالياته وقيمه، بحيث تعتبر الثقافة هي المحرك لأي حضارة أو أمة في توجيهها وضبطها أي هي من تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي.(4)

فالهوية الثقافية هي المميزة التي يمكن أن تميز المجتمعات بعضها عن بعض، سواء أكان في الجانب الاقتصادي أو العقائدي أو السياسي أو الاجتماعي أو الإيديولوجي، وهي الاعتراف والاعتزاز بالانتماء والأصل بغض النظر عن الواقع (سواء أكان مزدهرا أو مأساويا)، كما تعبر عن الطموح المستقبلي الذي يراود المجتمعات البشرية التي تطمح أن تقود العالم مؤمنة بدورة الحضارة التي تنشأ هنا وهناك.

2- العولمة الثقافية

العولمة الثقافية هي أصل العولمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، لأن الثقافة هي التي تهيئ الأذهان والنفوس لقبول تلك الأنواع الأخرى، وتجعل الناس مستعدين للانضمام إلى الأنظمة والمؤسسات والاتفاقيات الدولية، وتعتبر الثقافة عنصراً أساسيا في حياة كل فرد وكل مجتمع وكل أمة، وهي تشمل التقاليد والمعتقدات والقيم وأنماط الحياة المختلفة، والفنون والآداب وحقوق الإنسان(5).

وتعني انتقال تركيز اهتمام الإنسان ووعيه من المجال المحلي إلى المجال العالمي، ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي، ففي ظلّ العولمة الثقافية يزداد الوعي بعالمية العالم وبوحدة البشرية، وتبرز بوضوح الهويّة والمواطنة العالمية التي ربّما ستحلّ تدريجيا، وربّما على المدى البعيد محلّ الولاءات الوطنية، أي أنّ الإنسانية ستتعوّد النظر إلى ذاتها ككتلة واحدة ذات مصير واحد وبقاء وفناء واحد، ويشترك بعضها مع البعض الآخر في قيم عميقة تتخطى كل الخصوصيّات الحضارية والثقافية، ففي ظل العولمة الثقافية يكتشف الإنسان بعده العالمي، ويتعرّف على هويّته الإنسانية أكثر من أي وقت آخر. لكن بروز الهويّة العالمية في ظل العولمة لا يعني تلقائيا تراجع أو تهميش أو نفي الهويّة الوطنية للفرد، إذ يجزم البعض بأن العولمة لا تهدّد الهويّة.(6)

ومن أخطر أهداف العولمة ما يعرف بالعولمة الثقافية، التي تتجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وماله من خصائص تاريخية وقومية وسياسية ودينية، ولتحمي ثرواتها الطبيعية والبشرية، وتراثها الفكري الثقافي، حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار والقدرة على التنمية، ومن ثمّ الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي. فالعولمة الثقافية تقوم على تسييد الثقافة الرأسمالية لتصبح الثقافة العليا، كما أنّها ترسم حدوداً أخرى مختلفة عن الحدود الوطنية مستخدمة في ذلك شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة. هذه الحدود هي:"حدود الفضاء، والذي هو بحق وطن جديد لا ينتمي لا إلى الجغرافيا ولا إلى التاريخ، هو وطن بدون حدود، بدون ذاكرة، إنّه وطن تبنيه شبكات الاتصال المعلوماتية الإلكترونية".(7) فالعولمة الثقافية تعني إضفاء ثقافة عالمية واحدة على المعمورة، بغية القدرة على التحكم فيها،فيمكن لكل الشعوب أن تتنفس ثقافة واحدة وموحدة ويسود الاندماج الاجتماعي العالمي من فكر وسياسة واقتصاد ونمط معيشي واستهلاكي، فلا مجال للثقافات الفرعية بلغاتها وأديانها وسلوكياتها، فبإمكان الثقافة العالمية الواحدة أن تحل مشاكل الآخرين إذا تم استيعابها وعدم مواجهتها،هكذا يزعم أهل هذه الترويجات للعولمة الثقافية، وهكذا يبدو للمستضعفين على الأرض.

3- الشباب:

المرحلة التي يكون فيها الإنسان قادرا ومستعدا على تقبل القيم والمعتقدات والأفكار والممارسات الجديدة التي من خلالها يستطيع العيش في المجتمع والتفاعل مع الأفراد والجماعات (8). وتبدأ هذه المرحلة من بدء البلوغ وظهور علاماته الأولية والثانوية إلى طور النضج والتكامل والقدرة على تحمل المسؤوليات والأعباء الاجتماعية كاملة ويحدد هؤلاء المفكرون فترة الشباب من س-12-25-سنة

للغالبية من الشباب من أبناء المدن الذين ساروا سيرا طبيعيا في نموهم وتعليمهم.[9]

فالفترة الشبابية تمتاز عن غيرها بالمستوى الصحي القوي وبما يماثله من القدرة على تحمل المسؤوليات الاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى السن الذي يتراوح بين فترة البلوغ إلى فترة الكهولة.

المحور الثاني: التحليل السوسيولوجي للعولمة الثقافية

كما أن للعولمة مظاهر ووسائل خاصة بها، فإن للعولمة الثقافية كذلك مظاهر ووسائل وتتجلى في:

1- **التقدم التكنولوجي والتقني**: إن أثر التقدم التكنولوجي في طمس الهوية الثقافية للأمم لا يختلف في طبيعته عن أثر الاعتداء على هوية الفرد داخل الأمة الواحدة، فالأثر بشع في الحالتين والخسارة فادحة، وإن كانت تستخدم في صفة أسماء براقة، فما يرتكب ضد هوية الفرد داخل الأمة الواحدة، يحدث تحت شعار زيادة الرفاهية الاقتصادية، وكأن الرفاهية الإنسانية يمكن تجزئتها إلى جزء اقتصادي وغير اقتصادي، وما يرتكب ضد الهوية الثقافية للأمم يحدث تحت شعار التنمية الاقتصادية، وكأن نهضة الأمم لا تقاس بمتوسط دخل الفرد من السلع والخدمات.[10]

إن التقدم التكنولوجي بقدر ما هو إيجابي للبشرية حيث يجعلها تعيش حياة رغيدة دون صعوبة على عكس ما كانت عليه في السابق، بقدر ما تحمله من سلبيات وتمثل في وسائل الإنتاج المختلفة التي أبعدت الناس عن بعضهم بعدما كانوا يعملون في جو واحد أكسبهم رابطة إنسانية مكنتهم من التآخي، لكن التكنولوجيا المتقدمة جعلت الإنسان كالآلة يعمل وحده، وهذا مما يوحي أن العولمة الثقافية التكنولوجية أدت إلى حدوث شرخ اجتماعي في البنيان وبالتالي أثر على الهوية.

2- **وسائل الإعلام:**

إن الدول والمنظمات الداعية والعاملة لفرض ظاهرة العولمة؛ تعمل على استثمار منجزات ثورة الاتصالات والتقدم التقني والتكنولوجي في نشر ثقافة جماهيرية واحدة، وبقوالب محددة مسبقة الصنع، عمودها الفكري الاستهلاك ،وهذا ما نجده في المحطات الفضائية التي من خلالها يستنتج المراقب أنها مخصصة للإعلان وترويج البضائع الاستهلاكية، فالإعلان أصبح سيد الموقف في كل الفضائيات، وشكلت المواد الإعلانية هذا الهاجس، فهي المسيطر والبوصلة التي توجه الأجيال الجديدة في التفكير والتعامل والبيع والعرض والترويج وأسلوب الحياة بكاملها، وبذلك فإن العولمة ستؤدى إلى تغيير في القيم الحالية والخصوصية الموجودة في مجتمعاتنا وتؤدي إلى حدوث تغيرات اجتماعية عميقة.[11]

إن البرامج التلفزية الغربية بما تحمله من دقة في التمثيل والتصوير والترويج ،لها أثر على البنيان الفكري للإنسان العادي والمثقف على السواء،حيث تعمل هذه البرامج على إغراء متتبعيها بالصورة والصوت والأداء، وهوليود خير دليل على ذلك، هذه البرامج ليست آنية سرعان ما تمحي، بل على العكس فهي تسيطر على العقول خاصة الضعيفة منا وتجرها إلى حلقاتها، فيصبح الشاب عبر العالم والمسلم على وجه الخصوص يمارس نفس السلوكات التي رآها في هذه الأفلام والمسلسلات، ويعيش هذا الشاب في حالة اغتراب فعلي كحال شبابنا اليوم بلباس السراويل المتدلية، وتسريحة الشعر الديكية، أما بالنسبة للبنات فالأزياء المعروضة في العالم تريد الحصول عليها وبأي طريقة كانت،ولا يهمها الدين والقيم والعادات المجتمعية، فتمردت على كل شيء حتى نفسها،لذا نقول إن العولمة الثقافية أثرت بشكل كبير وجلي على شبابنا، فالقلة مازالت محافظة على قيمها وعاداتها وتقاليدها،وصدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين قال: "القابض على دينه كالقابض على الجمر".

3- **شبكة الانترنت:**

أصبحت هذه الشبكة وسيلة هامة للعولمة الثقافية بما تحمله من معلومات وأفلام وصور وأفكار ثقافية تطيح بمعالم الهوية الثقافية الخاصة بالشعوب والأفراد، خاصة على تلك الثقافة المادية التي تسيطر على الشبكة والإطاحة بالأخلاق الفاضلة من خلال المواقع الإباحية، إضافة إلى الدعاية السلبية التي من شأنها قلب الوضع الثقافي، وزرع اليأس في البلدان وذلك بتغيير الرأي العام وإقامة النزاعات بين الشعوب.[12]

إن الشبكة العنكبوتية التي ظهرت نتيجة تطور العولمة لها العديد من الإيجابيات،لكن لها سلبيات كبيرة خاصة في غياب الوعي الجمعوي الذي تشكو منه الأمة، كالجهل، وقلة

الفطنة والحيلة، أو بدواعي الحرية وترك الشاب يبني مستقبله، فأصبح الطالب والمتسرب على حد سواء يجلسون في مقاهي الانترنت للتواصل والتعارف العالمي، ومشاهدة ما لا يليق بقيمنا وأخلاقنا وأدبنا، وتضييع وقته وماله في هذه المحادثات والمشاهدات، وبالمقابل نلاحظ أن المستوى التعليمي قد تراجع وانحطت أخلاقه،وأصبح أسير هذه الشبكة التي لا تبتعد عن خياله حتى في نومه، إنه الإدمان ويا ليته إدمان إيجابي.

4- تسخير القوى العلمانية الداخلية من الكتاب ورجال الإعلام، ورجال التربية لصالح العولمة، وتجنيد المفكرين وهؤلاء الكتاب يروجون للأفكار العولمية والكونية، ويؤكدون أن الشعور بالولاء لأمة أو وطن قد أصبح من مخلفات الماضي التي يحسن إهمالها ونسيانها.ويؤيدون التدخل الأجنبي في التفكير وطرائق الحياة على شعوب العالم، والتدخل في المناهج التعليمية في الدول المختلفة ومنها الإسلامية، لتغيير عقول الناشئة، وتذويب هويتهم الثقافية والاعتقادية، ومن ثم تهيئتهم لتقبل ما تبث وسائل الإعلام الأمريكية من قيم مادية هابطة.(13)

5- وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة: وهي تلك الجرائد والصحف اليومية والإذاعات السمعية وما لها من تبليغ فكري ثقافي معين بالتأثير على الهوية الثقافية للشعوب خاصة بسيطرة الغرب عليه، بالإحاطة بعالمية الثقافة. ومن المعروف أن المثقف بقدر إيجابيته المتمثلة في توعيته للمجتمع وتعليمه وتيسيره لصعوبة الحياة، بقدر خطورته، وهذا يتمثل في شقه السلبي حيث يستطيع كذلك إقناع الناس بما هو مقتنع به، وخاصة الذين تأثروا بالفكر الغربي وعادوا إلى بلدانهم،ـ فبإمكانهم تغيير نمط تفكير المجتمع تغييرا جذريا، ففي المجتمع الجزائري قام الشيعيون بنقل أفكارهم وشهواتهم ونمط معيشتهم إلى المجتمع الجزائري واستطاعوا تغيير جزء منه، بالإضافة إلى العلمانيين الذين روجوا لأفكارهم التي تلقوها في بلاد الغرب خاصة فرنسا، ومازالوا يروجون لأطروحاتهم الفكرية حتى اليوم .

6- إن اللغة أداة مهمة اعتمدتها قوى العولمة في بسط هيمنتها الثقافية، ففي هذا الجانب يشير الكاتب صموئيل هنتينغتون إلى أن العالم يتوجه نحو حرب حضارية تكون فيها القيم اللغوية والرمزية هي الحدود القتالية..ويشير هنتنغتون وبيتر أل بيرغر في كتابهما عولمات كثيرة: أن الناس لا يستخدمون اللغة ببراءة،فكل لغة تحمل معها شحنة ثقافية من المعاني المعرفية والمعيارية وحتى العاطفية، ناهيك عن جملة المعتقدات والقيم التي يتم الترويج لها عبر وسائل الإعلام والاتصالات الجماهيرية الأمريكية (14).

إن الغربيين يسعون لتكوين بني جلدتنا تكوينا ثقافيا حتى يتسنى لهم بعد رجوعهم لأوطانهم تنفيذ هذه الأفكار، فهم بذلك يقدمون خدمات جليلة للغرب بدون عناء وتعب الاحتلال، بل وجد الغرب أن الاستعمار الثقافي أفضل وأيسر لهم، ونتائجه مربحة أكثر من الاستعمار العسكري القديم، ففي هذه الحالة يكسبون شريحة كبيرة من المجتمعات وذلك بتغيير المنظومات التربوية والاقتصادية والثقافية والإيديولوجية، وبالتالي تغيير نمط تفكير المجتمعات تفكيرا جذريا. ويقول ديغول: "زرعت جيلا في الجزائر يينع بعد 30 سنة، ويقول أيضا زرعت جيلا في الجزائر سيؤمن بفرنسا أكثر من إيماننا نحن بها، ويضيف ديغول:" إننا لا نترك الجزائريين لوحدهم لأن قلوبنا وعقولنا معهم، فهم مثلنا يتكلمون لغتنا ويتنفسون ثقافتنا"، ومن خلال هذا القول نتأكد واقعيا صحة قوله، فخطاباتنا وتعاملاتنا الإدارية تتم بالفرنسية، وكل صغير أو كبير من شؤوننا يتم اللجوء فيه إلى فرنسا وهذا بعد 54 سنة من الاستقلال!

المحور الثالث: آثار العولمة الثقافية على الهويات الثقافية للشباب خاصة العربي والمسلم

تأثرت الشعوب الضعيفة والمستضعفة مع دولها النامية والمتخلفة ومنها المصرة على التخلف بالعولمة بمختلف فروعها،ولعل العولمة الثقافية هي الأخطر على الإطلاق، لأنها تمس الفكر والعقل وتعمل على تغيير ذهنيات الأفراد والمجتمعات، خاصة وأن وسائلها المستخدمة والقوية تستطيع الولوج إلى قلوب الناس ثم عقولهم،وقد استطاعت العولمة الثقافية فعلا الاستحواذ على عقول شريحة كبيرة من المجتمعات خاصة المستضعفة منها وجرتهم إلى أهدافها، فأثرت على قيمهم وتاريخهم، وثقافتهم وإيديولوجياتهم، وقيمهم الروحية والاجتماعية والاقتصادية .... ويمكن ذكر ذلك في التالي:

- قيميا وتاريخيا: تعد العولمة استعمارا ثقافيا جديدا،لأنها تهدف إلى إحداث خلل في الهويات الثقافية للشعوب،

بنشر وهيمنة العولمة الثقافية الأحادية القطب بهدف الاستيلاء ونهب إمكانات الشعوب وحضاراتها، خاصة الفقيرة، وبالتالي فهي امتداد للاستعمار التقليدي الثقافي القديم الذي ما انفك يسيطر على البلدان عسكريا حتى غير وجهته الأكثر ضمانا بلجوئه إلى الاستعمار الثقافي الذي يهدف إلى تغيير أفكار الناس وانتماءاتهم الدينية والمعرفية والسياسية، فبعد تغلغل هذه الأفكار واستحواذها على عقول الناس امتدت لتطال ثقافات الشعوب والهوية القومية الوطنية، وترمي إلى تعميم أنموذج من السلوك وأنماطا ومنظومات من القيم وطرائق العيش والتدبير، وهي بالتالي تحمل ثقافة غربية تغزو بها ثقافات مجتمعات أخرى، ولا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد يتركز على احتلال العقل والتفكير، ويتوجه الأمر خاصة إلى الذين يسيطرون على مقاليد السلطة في بلدانهم الأصلية حيث يعمدون لتغيير البرامج التربوية والاقتصادية والثقافية لبلدانهم بغية إرضاء الدول القوية التي رسخت فيهم هذه الأفكار.

إنّ أخطر ما في العولمة أنَّها تنشر أفكاراً وسلوكيات من شأنها تحطيم الولاء للقيم التراثية والدينية الأصلية، والولاء للوطن والأمة، وإحلال أفكار ولاءات جديدة محلها.[15].وهي اختراق البنية الثقافية المحلية، وتفاقم مخاطر الاستلاب والغزو والاستعمار الثقافي، بما يؤدي إلى محو الهوية الحضارية الثقافية للأمة المسلمة، ونزع الخصوصية الشخصية للشعوب المسلمة (التي تمثل في الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والأخلاق)، بما تنطوي عليه من الترويج لقيم معينة لحضارة معينة هي الحضارة الغربية.[16]

وما تواجهه المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر في غزوها الثقافي بأسلحته المتنوعة من كتب وإذاعات، وصحف ومجلات، ومسرح ومسلسلات، وإنترنت، وقنوات أقمار اصطناعية واتصالات وغيرها من الوسائل الحديثة التي استعمله الغرب في الوصول إلى غاياته وأهدافه التي ركز من خلالها على نشر ثقافته وترسيخ الإعجاب بما حققه في مجال الصناعات المختلفة والمكاسب المادية في نفوس أغلب الناس،وقطع روابط الإنسان المسلم بثقافته الإسلامية وتراثه الذي هو حصيلة جهد بشري متواصل، حافظت فيه الشعوب على خصوصيتها وهويتها المتفردة طوال قرون مديدة،فقد تعرضت شعوب المنطقة في كل مكان لغزو في فترات عديدة وفي جوانب الحياة الاجتماعية والخصوصيات الثقافية،وقد ركزت هذه الوسائل على مخاطبة الغرائز وضرب الأخلاق وتغريب الشباب المسلم، لكي يبقى دون هوية ودون تاريخ ودون دين،عن طريق أفلام الرعب والمغامرات ومشاهد ولقطات مشبوهة وصور جنسية فاضحة تثير الأنانية والغرائز والابتعاد عن كل ما هو وطني،وإلهاء الشباب عن القراءة وترغيبهم في تقليد الغرب،وهذا ما أدى للانبهار بالثقافة الغربية، وإلى التغير الثقافي في كثير من العناصر الثقافية للمجتمعات الإسلامية

- **إيديولوجيا وثقافيا.** تجلت آثار العولمة الثقافية في طمس معالم الثقافة الوطنية والإسلامية خاصة، وإظهارها بمظهر العاجز عن مسايرة الركب الحضاري،فيعتبر البعض أن اللغة العربية تعتبر لغة شعر ولغة لتحفيظ القران الكريم لا غير، فهي لا تستطيع أن تنجز علما، وهذه القناعات منتشرة فعلا في أذهان البعض وهي حقيقة في نظرهم، وكأن اللغة هي سبب التطور لوحدها،غافلين بذلك عن أن الإنسان هو سبب تطور وازدهار اللغة وليس العكس، أما على المستوى العقائدي فحدث ولا حرج،فالانتساب إلى ديانات أخرى أصبح مفخرة للبعض مجاهرين به صباح مساء، وما حدث لانتهاك حرمات رمضان في وضح النهار لخير دليل على ذلك، فأصبح البعض جاهلا ومعتقدا أن الدين الإسلامي نزل على العرب فهم من لهم الحق في التقيد به ولا علاقة للآخرين به، إذن نقول إن العولمة الثقافية أثرت على المستوى الثقافي لغويا ودينيا، حيث يعتبر الغزو الثقافي التغريبي ذو الوجه القديم والجديد لا يزال قائما وأشد شراسة ضد الهوية الثقافية، وهذا بالحد من العناصر الأساسية للهوية الثقافية المتمثلة أساسا في لغة اللسان والعقيدة التي تعتبر كيان الإنسان ووجوده الروحي المكاني والزماني، وهذه الأمور تعبر عن الهوية.

- **روحيا:** تسعى والعولمة الثقافية إلى طمس القيم الروحية التي يتمتع بها الإنسان تجاه أخيه، وجعله ماديا بحتا يبحث عن المادة وذلك بالقضاء على الجانب العاطفي والفكري والنفسي، وبذلك يبتعد عن المجتمع وينزوي نحو الذات

الفردية التي لا تقيم وزنا للإنسانية، حيث تتجسد هذه الأشياء في إلغاء القيم الاجتماعية التي سعت إلى المحافظة على الكيان الاجتماعي طوال الفترات الزمنية السابقة حيث كان التكافل الاجتماعي سمة بشرية عالية.

- **اقتصاديا:** إن التأثير الثقافي للغربيين على الدول المستضعفة والمتخلفة أو المصرة على التخلف يتجسد في المواد المصنعة ذات الصبغة الاستهلاكية الواسعة الانتشار، فالعولمة الثقافية أدت إلى تغيير هوية هذه الشعوب المغلوبة على أمرها، بالنشر على منتوجاتها صور وكتابات ونماذج تغري العقول والنفوس، فتدريجيا تنخر هذه القيم والسلوكيات المجسدة في المواد المصنعة ذاتية الإنسان وعقله ويصبح بعد مدة زمنية معينة متعايشا معها، ومتلهفا ومشتاقا لرؤيتها من جديد، خاصة أن هذه السلع لديها صفحات إشهارية على وسائل الإعلام المختلفة وبصيغة راقية تلفت النظر وتغري النفوس،وقد صدق" انجلز وماركس" قبل 150 سنة بقولهما:" إن السلع الغربية ستنتشر في أرجاء العالم ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهها، ولو كان بمناعة سور الصين العظيم.

- **اجتماعيا:** إن العولمة الثقافية من خلال نشرها لأهدافها المعلنة تسعى لجعل العالم أكثر فردانية حيث تزول القيم الاجتماعية مثل التكافل والتراحم والتآزر، وتتقلص صلة الرحم، فالمهم بالنسبة للفرد هو العيش بحرية في محدودية قدرته الاقتصادية، وأنه غير مسؤول عمن هم أقرب إليه دمويا أو عرقيا أو دينيا، وقطع صلة الأجيال الجديدة بماضيها وتراثها، وتهميش كل ما يوحي بالتلاحم الاجتماعي، وهذه من صفات الماسونية العالمية، وبالتالي تتحقق فعلا مقولة " أُكِلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض".

- **إعلاميا:** سخرت الدول الكبرى وسائل إعلامية ضخمة مكتوبة مسموعة ومرئية، وشبكات التواصل لتنفيذ خططها الهادفة لزعزعة الهوية في العالم، حتى أصبحنا نلمس هذا في شوارعنا ومدارسنا ومؤسساتنا بالقول من نحن؟ ومن هؤلاء؟ وهل نحن حقيقيون وأصليون؟ أم وافدون؟ بل دخل هذا التشكيك حتى في أذهان مثقفينا، وأصبح الفرد يقول من نكون أعربا أو عجما؟ هل الدين الإسلامي ديننا أم هو دخيل علينا؟ فمنهم من يعتز بكونه علمانيا، وآخر بكونه شيوعيا، وآخر بكونه ملحدا، أما من الناحية اللغوية فهناك هروب من اللغة العربية من المواطن البسيط إلى أعلى مستوى في البلد، وكأن اللغة العربية هي سبب بلائنا وانحطاطنا، كما أصبح المتدين ينعت بالمتشدد أو الرجعي، وبالمقابل فالمقلدون للغرب في كل الأشياء هم المثقفون والواعون والحداثيون، وبهذا نقول قد نجح الغرب في خلخلة هويتنا العربية الإسلامية.

خلاصة:

إن الهوية بما تعنيه وخاصة الهوية الثقافية قد تعرضت، وتتعرض لخطر العولمة الثقافية، التي تعمل على محو آثارها من هذه المعمورة وخاصة في الشعوب المستضعفة التي لا تستطيع مسايرة هذه العولمة أو مواجهتها، ولعلى هذا الخطر يتضح يوما بعد آخر على المستوى الشعبي وعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي، فاليوم لا تكاد سلعة من السلع الاستهلاكية تنقطع من أسواقنا،فلا مجال لسلعنا على المنافسة حتى في عقر ديارنا، ناهيك عن المواد الثقافية التي تخترق ساحات منازلنا من أفلام ومسلسلات وإشهارات وجلسات رقص وغناء، فلا يمكننا أن نوقفها عن هذا الاختراق وهذا الولوج الكبير الذي أصابنا وأثر على كينونتنا الاجتماعية والعرقية والعقائدية.

إن العولمة الثقافية اليوم أخطر سلاح منذ القدم لأنها تغزو العقول وتهدم المبادئ والقيم الموروثة عن أجدادنا، إنها الفيروس القاتل إن لم نحاول إيجاد مضاد لها،وذلك بمحاولة الاستفادة من إيجابياتها ومواجهة سلبياتها، بالرجوع إلى عقيدتنا المحصنة لنا، والاعتزاز بلغتنا التي ينبغي تطويرها والاستثمار فيها،وهذا يتجلى في منظومة تربوية صحية تكون فيها القيم المجتمعية الأصيلة من (دين، لغة،تاريخ،انتماء واعتزاز) هي اللب في منظومتنا التربوية، مع تكريس العدالة الاجتماعية التي تشعر المجتمع بكينونته ومكانته ودوره المجتمعي، فإذا أغفلت أبعاد التنمية الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتضمن الهوية الثقافية والاستقلال السياسي سيؤدي إلى الانزلاق نحو التبعية؛ لأن شروط التنمية الناجحة وتسابقها مع التنمية الثقافية والاجتماعية من جهة واستقلاليتها من جهة أخرى سيضمن النجاح والتخلص من مخلفات العولمة بكل أجنحتها، فالتبعية الثقافية أخطر من الاقتصادية، لأن التبعية الثقافية تتجه إلى رهن الإرادة والوطنية.

بلالي عبد الملك

الهوامش:

1- "ينظر "بيتر إل بيرغر، صموئيل هنتنغتو ن،عولمات كثيرة، تر: فاضل جكتر، العبيكان للنشر، الريا ض،2004. ص.24

2- "ينظر" - صمويل هانتنغتون، الغرب وصدام الحضارات، جريدة أنوال المغربية، تر: محمد سعدي، عدد 10 ص.10

3-"ينظر" المهدي المنجرة: حوار التواصل، سلسلة شراع، ط4، 1997. ص .38

4-" ينظر"أسعد السحمراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، دار النفائس، ط1، 2002. ص.82

5-"ينظر" صمويل هانتنغتون، الغرب وصدام الحضارات، المرجع السابق. ص.10

6- محمد عابد الجابري"العولمة والهوية الثقافية: العرب والعولمة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998 ط2 . ص.297

7- سالم يفوت : هويتنا الثقافية والعولمة ، مجلة فكر ونقد، السنة الثانية، العدد 11، بيروت، 1998. ص39

8- محمد عابد الجابري:قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.ص.147

9- حجازي عزت: الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1978، ص33.

10- " ينظر" عمر محمد الشيباني: الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب، دار الثقافة، بيروت، 1973،ص.19

11- "ينظر" جلال أمين: العولمة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2010، ص55-.56

12- ينظر" تركي صقر: الإعلام العربي وتحديات العولمة، الفكر السياسي، العدد 16، وزارة الثقافة، دمشق،1998، ص.204

13- "ينظر" أحمد السمحراني، المرجع السابق ،ص.32

14- "ينظر "بيتر إل بيرغر، صموئيل هنتنغتون، عولمات كثيرة المرجع السابق.ص26.

15-"ينظر"جلال أمين: العولمة والدولة، (العرب والعولمة) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998، ص.156

16- "ينظر" برهان، غليون، الإسلام في عصر العولمة، مجلة جسور،السنة الأولى،2005،ص 16.